(١٠)

الزوجة

رايسا جورباتشوف

– إنها لا تهتم بمظهرها..

كثيرًا ما أطلق هذا الوصف، على رايسا، قرينة الرئيس الروسى ميخائيل جورباتشوف وهذا الوصف تكرر أكثر من مرة، وفى مناسبات عديدة، حتى إن نانسى – قرينة الرئيس الأمريكى السابق – انتقدت هذا المظهر صراحة فى شىء كثير من الغضب، وراحت تكتب فى مذكراتها:

– إنها لا تهتم بمظهرها..

إنها ترتدى كثيرًا حذاء ذا كعب مدبب، وتظهر فى الحفلات الرسمية بجيب سوداء من الحرير، وهيئة مرتجلة..

والواقع أن المرأة الأولى فى الاتحاد السوفيتى كثيرا ما توصف بالإهمال فى مظهرها العام، غير أن ذلك نفسه يمكن تفسيره إذا اقتربنا أكثر منها، حيث ترتبط هذه المرأة – أكثر من غيرها من زوجات الرؤساء – بالواقع السوفيتى، وتكوينها الشخصى عبر سنوات طويلة.

مفتاح شخصية رايسا:

إن من يريد التعرف على مفتاح شخصية رايسا، لابد أن يبدأ من هذه الملاحظة الخاصة بمظهرها، فقد أثبت العلماء فى الفترة الأخيرة أن المظهر العام يمكن أن يدل على صاحبه إلى حد بعيد.

وإذا نظرنا إلى النساء بوجه عام فسوف نجد أنهن يتحددن فى نوعين اثنين؛ يحدد كل منهما تكوين هذه المرأة أو تلك..

النوع الأول، امرأة تهتم بنفسها بشكل مبالغ فيه، وتصل فى درجة أناقتها إلى درجة الغلو، والإسراف، فإذا ارتدت فهى ترتدى أكثر الأزياء لفتًا للنظر، وأكثر الملابس ثراء ورفاهية، ويحرص هذا النوع على خاتم من الحلى الثمين المطعم بالماس والياقوت، على أن يكون القرط من نفس الطراز وسلسلة من اللؤلؤ التى يحيط به العقيق الأحمر..

ويحرص هذا النوع فى كل مرة أن تكون ألوان ملابسها من نفس ألوان المكان الذى تذهب إليه..

وهذا المظهر يكون من شأنه أن يلفت النظر إليها للوهلة الأولى

هذا نوع، أما النوع الآخر من النساء، فهو على العكس من ذلك..

إنها تبدو فى أزياء بسيطة وأنه لا يعوزها الأناقة الشديدة، فهى تعرف جيدًا أن البساطة والأناقة تساوى الجمال الرقيق الشفاف من غير تزيد..

وهذا النوع، أيضًا، يغلب على إكسسواراتها التناسق الفنى الذى يدل على ذوق رفيع أكثر من ثراء واسع، وفهم شامل باللمسات التى تمنح الأنوثة فى بساطة متناهية بغير اختلاف ملفت، كما أن المظهر العام لا يبدو مسرفًا فى الألوان، بأية حال..

هذا النوع من النساء تمنحها شخصيتها لونًا محددًا من الجاذبية التى تعتمد على الفهم لما يحدث، وكيفية التأثير فيمن حولها باختيارها للكلمة والتعبير والرغبة فى التواصل مع الآخرين.

هذان نوعان من النساء

النظرة العامة إليها تشير إلى أن الأولى تحفل بالخارج أكثر من الداخل، والأخرى تهتم بالداخل على حساب الخارج..

الأولى تهتم بالزى والمظهر والأظافر والريميل.

والأخرى تهتم - إلى جانب الأناقة والبساطة فى التعبير - بالتكوين العقلى، والتكوين الثقافى..

والمرأة الأخيرة، هنا، تمثل رايسا جورباتشوف..

إنها المرأة النقيض، التى تهتم بالتكوين الإنسانى أكثر من المظهر الصارخ.. تهتم بما يحدث حولها وليس ما يحدث لها فقط

هذا لا يعنى أن تكون المرأة الأنيقة دائمًا مسطحة، أو لا تتمتع بقدر من الفهم، وإنما غالبًا، ما تكون المرأة الأنيقة البسيطة أكثر وعيًا من غيرها..

هذا النوع الأخير كثيرًا ما تكون فاعلة فى الحياة.

هذا النوع الأخير هو ما نجد فيه رايسا، قرينة الرئيس السوفيتى ميخائيل جورباتشوف.. إنها مثال المرأة (النموذج) التى حين تمضى مع زوجها لا تثقل نفسها - كما نرى اليوم - بأطنان المجوهرات، بل تتنازل - حتى- عن هذا التقليد الذى ترتبط به السيدة الأولى فى أية دولة.. ولا حتى - حين تغادر بلدها فى رحلة عمل مع زوجها - لا تحفل بوفد من مصففى الشعر وعدد كبير من الصحفيين والمصورين، أو تشغل نفسها كثيرًا بالتفصيلات التى تحول بينها وبين الدور الذى تزمع القيام به..

أن رايســا كانت تهتم دائمًا بما يضفى عليها من جاذبية، وتكون رسـالتها الأولى التغلب على المشكلات التى تواجهها السيدة الأولى فى بلدها وخارج بلادها..

وللتعرف، أكثر، على رايسا، يجب أن نقترب، أكثر، من مفردات حياتها..

أستاذة الفلسفة :

رايسا.. لا تخفى عمرها الحقيقى.

إنها تجيب حين تسأل فى بساطة: ولدت فى ٥ يناير ١٩٣٢ وحين يداعبها البعض بأنها وصلت إلى الستين، تقول ضاحكة إنها لم تصل بعد إلى الستين لم أتجاوز باب الشيخوخة بعد..

ولا تتحرج من أن تتحدث عن مفردات حياتها الماضية ببساطة:

– انتمى إلى أسرة متوسطة، لقد كان أبى يعمل فى مهنة متواضعة بالسكة الحديد.

– تفوقت دائمًا فى دراستى، نعم.. حصلت على درجة الدكتوراه فى الفلسفة.

– فى أيام الجامعة كنت أجرى حوارًا دائمًا ومتصلاً مع أساتذتى.

– بعد تخرجى فى جامعة موسكو عملت أستاذة للنظريات الماركسية – اللينينية.

– اخترت السياسة، عن عمد، لكن اخترت – خارج نطاق التخصص – أن أتعرف على الفن وأقرأ الأدب وأجادل فى النظريات الجمالية..

– لا أتردد فى الدفاع عن الفلسفة السياسية السوفيتية.. وهل فى ذلك شىء يخجل؟

– عرفت جوربى (جورباتشـوف) فى هذه الفترة حين كان يدرس الحقوق، واقتربنا كثيرًا من بعضنا..

– جوربى – لم أرتبط به إلا بعد فترة طويلة من تعرفنا، أظن ذلك تم فى عام ١٩٥٣.

السيدة والدكتورة :

ومن ذلك، نرى من حديث رايسا أن تركيزها الأساسى لم يكن فى نظرياتها العلمية الفلسفية وحسب، وإنما كان ذلك وسيلة للدخول إلى عالم زوجها، حين اقتنعت أن الوعى بقضايا الاتحاد السوفيتى هو ما يجب أن يتحول – خلال الحوار الدائم مع زوجها – إلى غاية أساسية..

وآثرت أن تقف بجانبه وليس أمامه قط.

لم تكن رايســا امرأة طموحة، يبهرها، كما بهر كثيرات غيرها، مظاهر الأبهة فى الكرملين، ولا ردهات الحزب الشـيوعى الضخم، ولا المؤتمرات أو الانتقالات داخل بلدها وخارجه، وإنما أدركت أن طموحها يجب أن يكون من أجل بلدها مع جوربى (كما كانت تنادى جورباتشـوف دائمًا)..

وقفت رايسا مع جوربى سنوات التحول، منذ كان أمين عام للحزب الشيوعى ١٩٨٥ ثم حين أصبح رئيسًا للجهورية عام ١٩٨٨، وتعرفت عن قرب على كثير من الاصطلاحات مما سمى بالانفتاح والمكاشفة وإطلاق الحريات، كما شهدت وعاشت تغييرات اقتصادية ضخمة كان لابد أن تمر بها البلاد من التحول الاقتصادى والانتقال إلى سياسة السوق.. وما إلى ذلك.

إن أحدث الكتب التى صدرت عن رايسا أشارت إلى أنها كانت إيجابية، ولم تكن سلبية قط، كانت تدخل فى حوارات مستمرة مثمرة مع زوجها، وتفكر معه فى القضايا التى كانت تمثل مشكلة كبيرة، بل إن جورباتشوف، وخروجًا على سياسة رؤساء الجمهوريات الضخمة لم يخف أنه كان «يستشيرها فى أدق تفاصيل سياسة الكرملين».

إن رايسا، المثقفة، أستاذة الجامعة.. لم تتردد فى الدخول إلى حلبة الجدل السياسى فى شئون بلادها، والمشاركة بوعى شديد، فيما تعانيه البلاد، فى حضور زوجها، وبعيدًا عن الأضواء وفلاشات الصحف..

وربما لهذا السبب لاحظنا أن نانسى – قرينة ريجان – تتحدث فى مذكراتها عن رايسا بحنق شديد، فتشير إلى مظهرها – كما أشرنا – وهى تطوى ضيقًا شديدًا، فمن المؤكد أن رايسا امرأة مثقفة، واعية لما يحدث حولها، ومن هنا، فهى لا تتردد فى الإعلان عن أفكارها السياسية الصريحة، وهى أفكار تجاوز السياسة إلى الفلسفة إلى الاقتصاد إلى الأزياء، ويمتد اهتمامها إلى قضايا كثيرة لا تتردد فى التعبير عنها بالإنجليزية التى تجيدها – على عكس النساء السوفيات – وباللسان والأسلوب الذى يوصل ما تريد إلى المستمع..

إن رايسا لا تقتصر فى أفكارها على السياسة ومحظوراتها، وإنما لها اهتمامات كثيرة بالفن، وكثيرا ما أدهشت محدثها باطلاعها الكبير على عيون الأدب ومذاهبه فى العالم..

الوجه الآخر:

على أنه يفرض علينا الحديث عن رايسا، العود ثانيًا إلى نانسى..

فإذا كانت رايسا سيدة هادئة، طموح، فإن نانسى كانت عاتية جموح. وإذا بدت الأولى بسيطة فى مظهرها العام، فإن الأخرى، تمثل، دائمًا الوجه الآخر..

ومن هنا، من النقيض نستطيع أن نتعرف على الصورة الأولى.. من الأسود نستطيع أن نميز الأبيض ونتعرف عليه..

ومن هنا، فمن يزر الاتحاد السوفيتى، خاصة، بعد الانقلاب الذى قاده المتشددون فى الحزب الشيوعى ضد جورباتشوف، يدرك، بسهولة، تلك المكانة التى تحتلها رايسا فى قلوب الشعب السوفيتى، ليس بالمظهر المثير، وإنما بتراكم الوعى والمواقف الرفيعة والشخصية المميزة..

وعلى ذلك، يسهل القول الآن: إن جزءًا كبيرًا مما وصل إليه جورباتشوف للنهوض بالاتحاد السوفيتى واستعادة المكانة الدولية ودخوله فى أكثر من حوار فى هذه الفترة العصيبة مع زعماء أطراف الاتحاد السوفيتى مثل يلتسين، ثم استعادة السلطة الكاملة بعد الانقلاب الفاشل.. نقول إن جزءًا كبيرًا مما أحرزه جورباتشوف يعود إلى رايسا؛ فقد كان يقول دائمًا وهو يشكرها [شكرا رايسا ماكسيموفنا لمساعدتها ودعمها وإخلاصها].

رايسا جورباتشوف :

كان على رايسا، أن تدرك، أكثر من غيرها التغييرات الحادة التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى، ومن هنا، لعبت دور الزوجة ذكية القلب فى موقفها من زوجها فى هذه الأزمة..

إن رايسا لم تكتسب اسمها مفردًا، فلم تنادى - كما رأينا فى عديد من البلدان الأخرى، بسيدة أولى (سيدة الاتحاد السوفيتى الأولى)، كما أنها لم تنجرف لطموح المرأة لتصبح (نجمة) وحسب..

إنها ليست مدام دى بومبادور ولكنها رايسا جورباتشوف.. وكثيرًا ما كانت تقول، وهى تتحدث عن نفسها أنا رايسا ماكسيموفنا دليلا على معرفتها لدورها جيدًا».

وراءه وليس أمامه :

وبناء على ذلك، يمكن أن نتصور مدى الألم الذى أحست به رايسا فى الانقلاب الأخير ضد جورباتشوف..

إنها لم تتصور أبدا أن (كل) رجال الرئيس يمكن أن يتحولوا ضده فجأة، حتى بروتس، نائبه الأول (جينادى ياناييف) كان أول من تمرد عليه وإعلان مرضه وتحول السلطة إلى لجنة أسميت (لجنة الطوارئ)..

لم تتصور رايسا ذلك أبدًا..

ولهذا، ففى الأيام الثلاثة التى عاش فيها الانقلاب لم يسمع قط عن رايسا، وحين عاد جورباتشوف، مرة أخرى، بثياب العطلة، لم ير رايسا معه.. رددت المصادر (التليفزيون الروسى ورئيس الوزراء ووكالات الأنباء) أن رايسا لم تتحمل الصدمة العنيفة، فأصيبت فجأة بما يشبه الموت، وحين أفيقت مرة أخرى كانت تحس بخدر يسرى فى يدها، ويهددها بالشلل، كما أصيبت بصعوبة فى النطق..

وأخيرًا، تردد أن جسد رايسا توقف كله، ولم يعد يتحرك فيها غيرُ عينيها، البراقتين، الذكيتين.. وما لبثت أن عادت إليها، مرة أخرى، قوة الإرادة فحاولت أن تتحرك، لكن الصدمة كانت أقوى من الإصابة المباشرة..

حين هبط ميخائيل جورباتشـــوف من الطائرة بعد فشـــل الانقلاب. لم يجد أحد من منتظريه رايسا معه، وحين سأل البعض أين السيدة الأولى، سمع الرئيس جورباتشوف يجيب:

– إن رايسا معي.

فقط لا ترونها لأنها لا تقف أمامي أبدًا

إنها تقف خلفي

لقد كان وراء جورباتشوف امرأة عظيمة اسمها رايسا جورباتشوف كما كانوا ينادونها، ورايسا ماكسـيموفنا حين كانت تتحدث عن نفسها أو يتحدث عنها زوجها.. فهي في جميع الحالات المرأة: الزوجة.

المراجع

- http://www.islamonline.net/iol-arabic

– كما نلاحظ أن أهم الإشـارات إلى رايسـا جورباتشوف ليس فى الإشارة إليها فى عديد من الصحف وفى المواقع الرقمية فحسـب، وإنما يمكن اسـتعادة كتابها المهم وهو حوار طويل بين السـيدة رايسـا زوجة الزعيم الروسى جورباتشوف والصحفى الروسـى المكلف بصياغة كلامها.. وأول ما يلفت النظر فى هذا الكتاب هو صدقها الشـديد مع بسـاطة أخاذة لا تشـك إلا فى أنها طبيعية.. ذلك هذه السـيدة ليسـت مجرد زوجة رئيس الجمهورية وإنما هى عالمة اجتماع ريفى دارسة للدكتوراة لكنها لم تشأ مناقشتها بعد أن صار زوجها رئيسا للجمهورية..

وكان موضوع الدراسة: «تطور المعالم الجديدة فى حياة فلاحى المزارع الجماعية»..

التفاصيل المهمة عن حياتها نجده والكتاب الذى بين أيدينا حوار طويل بين السيدة رايسا زوجة الزعيم الروسى جورباتشوف والصحفى الروسى المكلف بصياغة كلامها.. وأول ما يلفت النظر فى هذا الكتاب هو صدقها الشديد مع بساطة أخاذة لا تشك إلا فى أنها طبيعية.. كذلك هذه السيدة ليست مجرد زوجة رئيس الجمهورية وإنما هى عالمة اجتماع ريفى دارسة للدكتوراة لكنها لم تشأ مناقشتها بعد أن صار زوجها رئيسا للجمهورية..

وكان موضوع الدراسـة: « تطور المعالم الجديدة فى حياة فلاحى المزارع الجماعية فى هذا يمكن العود إلى:

- http://www.ahewar.org/debat/show

وهنا يمكن العود إلى النص الأصلى لكتابها المهم: املى.. مذكرات ريسـا جورباتشـوف الذى نجده فى كثير من المكتبات والكتابات الرقمية..